

"إيدز" العالم الثالث

بدأت حرب الخليج يوم ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، وانتهت في ليلة رهيبة يوم ٢٦ شباط/فبراير ١٩٩١. كانت ليلة حزينة مرعبة لا نظير لها في الحروب الحالية الحديثة بين البشر. كان القصف شديداً على الجيوش العراقية العائدة من الكويت، وكان الضرب عنيفا طول الليل على بغداد، بحيث لا أجد مطلقاً فيما درست من تاريخ الحروب الحديثة مثيلاً لهذا القصف.. من جانب واحد.. بهذه الدرجة من الفظاعة والوحشية في أي حرب من الحروب.

ليلة خمرة.. وغولان

يقول المراقبون عن الجيوش المنسحبة من الكويت في اتجاه البصرة.. أنها كانت هدفاً لقصف جوي شديد حتى تغطت الطريق من الكويت إلى البصرة بجنث القتلى المبعثرة، وحطام السيارات واللوريات وحاملات الجنود وغيرها من وسائل النقل المنتشرة في كل مكان. كان الدمار مشهداً مفرعاً يتعذر على الإنسان احتمالها. هكذا كان تعليق المراقبين الغربيين. كان صوت المراقب يرتجف بين الحين والآخر وهو يصف مشهد قصف بغداد؛ ويقول: لا يستطيع المرء تصور مدى القصف الرهيب الذي يجري الليلة.

وقد سبق أن ذكرت لكم أموراً حول ذلك، منها أن ما جرى كان شبحاً لمذلتهم في فيتنام الذي يسيطر على أمريكا كشعور بالنقص أو الدونية، ويريدون طرد هذا الشبح بطريقة أو أخرى. وبدأت تلك الليلة بالنسبة لهم ليلة خمر، احتسوا فيها دماء العراقيين ليغرقوا فيها أحزانهم من عار فيتنام. ولقد ثبت صحة انطباعي هذا لأن تعليقات المستر بوش كانت هكذا تماماً عندما أعلن: لعمرى قد تخلصنا من أعراض فيتنام إلى الأبد! (Harrisburg Patriot News 2.3.1991, USA). ولكن الحقيقة ليست كما يظن، بل الحقيقة أن شبح حكايات فظائعهم كان يطاردهم، فخلقوا غولاً آخر من فظائع مشابهاة. فلم تعد المسألة غولاً واحداً.. وإنما غولان. هناك الآن شبحان سوف يطاردان أمريكا: عفريت فظائعهم في فيتنام، وعفريت ثانٍ لفظائعهم في العراق. ولكنهم لا يستطيعون رؤية هذا العفريت الآن.. لأنهم يفسرونه بطريقة تختلف عما يفسره به سائر العالم. إن العالم لا ينظر إلى مقتل ٥٤ ألف أمريكي في فيتنام شحنت جثثهم إلى وطنهم، ولكن العالم يرى مصرع مليونين ونصف مليون من أهل فيتنام. ومحو آلاف القرى والبلدان من على سطح البسيطة. عندما تتغير الصورة تتغير المشاهد. فغول فيتنام حيث قُتل من الأمريكان ٥٤ ألفاً، والذي كانوا يريدون الفرار منه، يحسبون أنهم قد تخلصوا منه في العراق حيث لم يخسروا هناك مثل خسائرهم في فيتنام، ولكن التاريخ لا ينظر إليه بهذه النظرة. وإنما نَظَرَ التاريخ إلى فيتنام وسيظلّ ناظراً إليها من زاوية أن أمريكا التي كانت ترتدي رداء المدينة في العصر الحديث هاجمت دولة فقيرة ضعيفة للغاية.. ظلماً وعدواناً، وما برحت تمطرها بشقّ الفظاعات لمدة ثماني سنوات ونصف. رموهم بالقنابل بدرجة فظيعة حتى زالت من الوجود قرى بعد قرى، وأقفرت من السكان مناطق بعد أخرى. ومن ثمّ لم يمكنهم أبداً نسيان ذكرى فيتنام.. لأن العالم لن ينساه، ويضاف إليه اليوم فظائعهم في العراق.

دمويتهم ضد العراق

ولقد لخص مستر توم كنج Tom King وزير الدفاع البريطاني أمام البرلمان ما حدث من دمار فيقول: في هذا الوقت القصير.. حولنا ثلاثة آلاف قرية عراقية إلى تراب. ويمكن بذلك تصور أولئك الذين كانوا يدعون بأنهم يحاربون لتحرير العراقيين المقهورين من براثن الطاغية القاسي، وكيف حولوا ٣ آلاف من القرى والمدن العراقية إلى تراب! وليس من الضروري هنا ذكر التفاصيل الأخرى، كم قُتل من جنود العراق، وكم حطموا من سلاح وعتاد. إن تحويل ٣ آلاف قرية إلى تراب في مثل هذا الوقت القصير حدث لم يقع مثله في التاريخ قط، ولم يمطر هذا القدر من الفظائع على أمة في مثل هذا الزمن القليل.. ومع ذلك فهم يتهجون بنصرهم! إنه لأمر مذهل، وإِنَّه بالغ الخزي والعار، وهو شبيه بترتيب مصارعة بين طفل أمريكي ومصارع ياباني من الوزن الثقيل "أنوكي".. فيضرب المصارع الطفل ويفتك به. ثم تُرفع هتافات عريضة يقولون فيها: انظروا، لقد انتصرت اليابان على أمريكا! تتحد ثلاثون دولة، وتتكاتف كل قوى العالم ضدَّ العراق، ومعهم تفوق ساحق بكل أنواع من السلاح، ولهم اليد العليا في كل مجال، ثم يبترون يد العراق وأقدامه، ويخلعون أسنانه، وكما يُفعل بالذبيحة، قطعوا أوصالهم، ثم يتباهون بما حققوه من تنكيل!

على أي حال، لقد أصبح ذلك كله من أمور الماضي، أمّا فيما يتعلق بما لهذا الحادث من عواقب رهيبية في المستقبل، فسوف أقدم بعض المقترحات للعرب وللمسلمين ولسائر أمم العالم، وبلاد العالم الثالث بصفة خاصة.. مثلما فعلت من قبل.

نصيحة للعرب

يجب على العرب أن يسووا نزاعاتهم الداخلية على الفور، ويشركوا معهم في هذا المجال إيران أيضاً، لأنَّ هناك ثلاث خلافات إذا لم تحسم حالاً.. لن يتمكن العرب من توحيد الكلمة أبداً في مسألة فلسطين. فأولاً: لإيران خصومة تاريخية مع العرب، كانت سبباً دفع السعودية والكويت إلى مساعدة العراق في حربه ضدها. وبالرغم مما بين العراق وبين السعودية والكويت من خلافات متبادلة.. إلا أنَّهما لم تطبقا أن تكون إيران لصيقة بهما.

وثانياً: هناك مشكلة ما بين السنة والشيعة. وللسعودية بازاء هذه المشكلة حساسية شديدة؛ ولا يطبقون نهضة الشيعة وبروزها مهما كان الثمن.

وثالثاً: هناك مشكلة الأكراد. وفيما يتعلق بتكتيك العدو الإسرائيلي.. فإنه أشد ما يكون رغبة في تفجر هذه المشاكل. عندما قاربت الحرب نهايتها.. أثاروا تمرداً شيعياً في جنوب العراق. وكان متوقفاً أن يشب الخلاف بين العرب وإيران نتيجة هذا التمرد الشيعي. وفعلاً لجأ مشايخ الشيعة إلى إيران يناشدون عونها. ولكن يبدو أنَّ السعودية مارست ضغطاً شديداً في هذا الصدد، وإن لم يرد شيء عنه في الأخبار، ولكنَّه استنتاج منطقي، وأوقفت أمريكا عن أن تكون أداة لهذه المؤامرة الصهيونية، ولولا ذلك ما توقف الأمر عند هذا الحد. ومن الوارد أيضاً أن تكون إيران قد استخدمت عقلها حتى لا يوضع أساس لحروب رهيبية في المستقبل في المنطقة. ومع ذلك

فإنّ هذا الجهد من جانب العدو لا يزال مستمرا، وإنّ ينجح يحقق للعدو هدفين هامين: الأوّل.. زيادة التباغض بين إيران والعرب؛ والثاني. اشتعال الخصومة بين السنة والشيعة. ومن الممكن أن ينجم عن هذين العاملين مزيد من التنازعات التي قد تصل إلى الحروب.

وفي هذا الوقت ثار الكرد أيضا. ولم يتطور موضوع الأكراد أكثر لأنّ أمم الغرب وإن كانت تتحدّث في الظاهر باسم السلام.. فإنّهم في الواقع لا يهتمهم شيء سوى مصالحهم الأنانية، وفي هذا الموقف ليس من صالحهم إثارة مشاكل الأكراد. والسبب في ذلك أنّ الأكراد لا ينتمون إلى العراق وحده، وإنّما تتصل مشكلتهم بأربعة بلاد: إيران وتركيا والاتحاد السوفيتي والعراق. فإذا هم أثاروا الأكراد في العراق وناصروهم باسم العدالة ضدّه.. فلا بد وأن يثوروا أيضا ضد تركيا، وإلا ضاعت مصداقيتهم لمناصرة السلام، وثبت بطلان دعواهم. كما أنّ ثوران الأكراد يثير موجة من التحرر بين جميع الأكراد، ويخلق مشاكل لإيران والاتحاد السوفيتي. هكذا أرجأ القدر الإلهي هذه المشاكل مؤقتا.

من أشدّ الأمور أهمية بالنسبة للأمم الإسلامية المتصلة بهذه المشاكل أن تبادر إلى الاجتماع وحلّ هذه المشاكل فيما بينها حلا دائما، وإلا بقيت المشكلة سيفا معلقا على أعناقهم بخيط تمسك أو تشتبك به أصابع القوى الغربية.. يسقطونه على رؤوسهم وقتما يشاءون فيجرحوهم، أو إن شاءوا يجعلونه يخرق قلوبهم. وسيبقى احتمال استغلالهم المرعب لهذه المشاكل سيفا مُصلّتا كما هو الحال بالنسبة لسائر المشاكل في العالم. فالغرب يلجأ دائما إلى إثارة بعض المشاكل الكامنة عندما يشاءون استغلالها، وهكذا تتقاتل دول العالم الثالث فيما بينها، ويدمر بعضها بعضا.

وثمة نصيحة أخرى لهم. يقولون: إنّ أمريكا تضغط على إسرائيل كي تنسحب من الضفة الغربية للأردن، ولكّني على ثقة من أنّ هذا الكلام غير صحيح. إنّهم يلعبون مسرحية ليست إلا. لو كانت أمريكا مخلصة في مسألة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية للأردن لقبلت عرض صدام حسين من أوّل يوم.. عندما حاول ربط المسألتين سويا، وقال لأمريكا: سأنسحب من الكويت، فاطلبي من إسرائيل أن تنسحب من الأرض المحتلة، لتنتهي كلّ تلك المشاكل من دون إسالة قطرة دم واحدة. ثمّ إنّ إسرائيل تسرع في إقامة المستوطنات، وتستخدم معظم ما يُقدّم لها من أموال الغرب في توطين المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي في الضفة الغربية. فلا يجد المرء سببا معقولا لمصداقية إخلاص أمريكا في ذلك، أو أنّ إسرائيل سوف تقبل به.

وهناك خطر آخر يوضع إلى جانب هذا، إنّهم يضغطون على سوريا لتفعل ما فعلته مصر، فتعقد اتفاقية سلام مع إسرائيل. ولو حدث هذا فلن يبقى بين العرب من يرعى الفلسطينيين أو يساندهم إلا العراق والأردن. ولكّكم رأيتم الموقف في العراق. أمّا الأردن فلا تملك القدرة على مواجهة إسرائيل، بل ربما تقوم إسرائيل باستفزاز الأردن باستمرار بحجة أنّ الأردن تصرف حيالها تصرفا عدوانيا ووقف في صفوف أعدائها فلا بد من احتلاله اليوم. ومن وجهة النظر هذه، فإنّه لمن الضروري جدا اتحاد ثلاث دول من الشرق الأوسط هي إيران والعراق والأردن، ومن الضروري لهم أن يصلوا إلى اتفاق مع سائر البلدان العربية، حتى لا يبقوا منفصلين عن الآخرين، وحتى تساندهم

الدول العربية الأخرى إلى حدّ ما.

الثروة البترولية

وهناك مسألة أخرى سوف تثار.. ألا وهي إعطاء الصدقات من ثروات البترول من السعودية والكويت إلى الدول العربية التي تعوزها الثروة. لو أنّ هذه البلاد قبلت معونة السعودية والكويت على أساس المنحة والصدقة، وأنّهم لا حق لهم في هذه الثروة.. فسيكون ذلك انتحارا مخيفا جداً. ونتيجة لذلك فسوف يختفي إلى الأبد كلّ ما تبقى من فرص لمعالجة المشكلة الفلسطينية. ولذلك على العرب أن يتخذوا تجاه هذه المسألة موقفاً بأن ما آتاهم الله من ثروة بترولية هو شركة بين الجميع كما عليهم أن يتفقوا على صيغة فيما بينهم بحيث يشارك الجميع في حراستها، وأن يكون اشتراكهم فيها بالعدل. وبطبيعة الحال، تنال البلاد البترولية خمس الثروة كما تقضي بذلك الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالكنوز. قد تكون هناك فروق بسيطة بين الفقهاء ترفع نصيبهم قليلاً، ولكنّ المهمّ اللازم أن يصلوا إلى اتفاق على مبدأ الثروة المشتركة. ومن الضروري أن يستقروا ويثبتوا على هذا المبدأ. وعندئذ لا يكون ما يحصلون عليه ثمرة تضحيتهم باحترام النفس، بل يكون حقاً لهم.. وهو الواقع. فكلّ الأمصار العربية كانت بلداً واحداً، مزقته الأيدي الاستعمارية الغربية، مناقضين بذلك كلّ وعودهم. لقد أعلنت الحكومة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى وعداً مؤكداً بأن تترك وراءها عرباً أحراراً متحدين. وحتى اليوم، لم ير هذا الوعد نور الوفاء لصالح العرب أبداً. وهذا يعني أنّهم كانوا قد اعترفوا بأنّ ثروة العرب مشتركة. فعليهم أن يتبعوا هذا المبدأ ويستمسكوا به، ويتقدموا في مباحثاتهم على طول هذا الخط.

"كومونولث" اقتصادية

وهناك مسألة هامة أخرى.. يجب أن تكون هذه المنطقة بكاملها مجموعة اقتصادية متكاملة (كومونولث Common Wealth). كان مفهوم الاتحاد العربي الذي قدمه الرئيس المصري جمال عبد الناصر اتحاداً سياسياً، ولكن ليس من اللازم أن يأتي الاتحاد السياسي أولاً قبل الاتحاد الاقتصادي، بل إذا تقدم الاتحاد السياسي تضررت جوانب الاتحادات الأخرى بشدة. ولذلك عندما كان القادة الحكماء الغربيون يشكلون السوق المشتركة.. بدؤوا أولاً ما بدؤوا بمناقشة الوحدة الاقتصادية. وبعد ما تحققت لهم الأهداف الاقتصادية شرعوا بالتدرج يخطون نحو الوحدة السياسية.

وحركة توحيد العرب التي أشرت إليها بدأها في الواقع السيد جمال الدين الأفغاني قبل الرئيس جمال عبد الناصر، ثمّ تبنت فلسفتها الحركات الأخرى التي ظهرت فيما بعد. ففكرة الأفغاني عن وجوب اتحاد العالم العربي، أو بالأحرى اتحاد العالم الإسلامي.. فكرة لا يمكن للبلاد الإسلامية ألبتة قبولها بهذه الصورة، كما لم يقدم القرآن الكريم أبداً فكرة اتحاد المسلمين جميعاً تحت حكومة واحدة، بل بهذه الصورة لا يمكن حتى للبلاد العربية أن تحقق اتحاداً إلا إذا سعوا إليه خطوة بعد خطوة، وعلى مراحل متدرجة. فأعظم الخطوات أهمية هي الوحدة الاقتصادية، التي ينبغي أن يكون لها برنامج مشترك، ويعد لها خطط مشتركة. وعلى الخصوص خطوة تحويل المنطقة إلى الاكتفاء الذاتي في إنتاج الغذاء، وفي الصناعات. وعندئذ فقط.. يمكن أن يتوافر بعض الأمان لتحرر هذه البلاد.

خطر الاستعمار الاقتصادي

وبهذا الصدد هناك مسألة أخرى هامة. فالحرية الاقتصادية لا تخص هذه المنطقة وحدها، بل تخص جميع بلاد العالم الثالث. وهم يواجهون خطرا شديدا ينبغي فهمه فهما صائبا تماما منذ الآن؛ ومن الضروري أن تُتخذ له الخطوات الوقائية. إنّه خطر الاستعمار الجديد. بعد الوفاق مع الاتحاد السوفيتي تخلت بلاد الكتلة الشرقية التي كانت تتبع الفكر الشيوعي عن فكرها هذا، وأسرعت الخطى نحو الأيام الخوالي، والآن ستكون المنافسة بينهم في ميدان الإمبريالية الجديدة. عندما يسترد الاتحاد السوفيتي عافيته من مشاكله الحالية ويتغلب عليها، سيكون أهمّ الأمور في سبيل المنافسة الاقتصادية أن يُخطف الأسواق من بلاد العالم الأول. وستنهض ألمانيا كقوة اقتصادية جديدة، وستنضم كثير من بلاد شرق أوروبا إلى ألمانيا، وسوف يتطلب ناتج اقتصادهم المتحد أسواقا جديدة. وهكذا سوف تواجه كلّ دول العالم الثالث أخطارا رهيبية. وزيادة على ذلك.. فأوروبا يقظة، وأمريكا يقظة.. وهدفهم المشترك أن يسيطروا على اقتصاد بلاد العالم الثالث، فلا يبقى لهم سوى الحسرة والتنهيد، ولن يجدوا أمامهم سبيلا ليحيوا حياة محترمة. بل هناك بعض البلاد الأفريقية، التي وصلت إلى حال يشق عليهم فيها أن يتنفسوا.

التعاون الاقتصادي

لذلك ينبغي على هذه الدول أن يقيموا أسواقا اقتصادية مشتركة متنوعة. فمثلا هناك الهند وباكستان وسيريلانكا وبنجلاديش.. بها إمكانية طبيعية لخلق سوق اقتصادية مشتركة. ولكن هذا ممكن فقط إذا سورا نزاعاتهم المشتركة فيما بينهم. وإذا لم يتمكنوا من تسويتها فلن يستطيعوا إقامة سوق مشتركة، ولن يكون لديهم قدرة للتوصل إلى أي حل آخر لموقفهم الحاضر السيئ. وأعني بموقفهم الحاضر السيئ أنه لو فكرتم فيه لأذهلكم أن سبيل خلاص كلّ هذه البلاد من مشاكلهم مسدود نهائيا. بعيون مغلقة لا ينفكون مستمسكين متصلبين بخط تفكيرهم ذاته، ويبدلون نفس الجهود التي لا تقدر على حلّ مشاكلهم. إنهم عند نهايات مسدودة لا يمكن المرور خلالها.

قلّوا النفقات العسكرية

ومن مشاكلهم مثلا مشكلة كشمير. إن المنازعات التي خلقتها هذه المشكلة بين الهند وباكستان.. اضطرتهما إلى الاحتفاظ بجيوش كبيرة ينفقون عليها ٦٠ بالمائة من دخولهم القومية. فكيف يمكن لبد ينفق ٦٠ بالمائة من دخله أن يعيش بحرية اقتصادية؟ لن يقدر مثل هذا البلد أن يعيش بكرامة. إن البلد الذي ينفق أكثر مما يطبق اقتصاده مضطر للاستجداء كي يعيش، ولا بدّ له من التسول كي يحتفظ بقوته العسكرية. وهكذا تحت لعنة الشحاذة تعيش الهند وباكستان، وحيثما يستطيعون الذهاب.. راحوا بأكفّ ممدودة لينالوا الإحسان. والسبب الرئيسي لذلك هو نزاعاتهم المستمرة المتبادلة. هذا هو التحليل النهائي لموقفهم وليس هناك سبب آخر. فلو تُسوَّى مشكلة كشمير، والمشاكل الأخرى المشابهة يمكن إحداث تغيير ثوري في هذه المناطق.

وبالإضافة إلى ذلك هناك أمور أخرى يجب وضعها في الحسبان، ليس في الهند وباكستان وحدهما ولكن في جميع بلاد العالم الشرقي، سواء في آسيا أو في أفريقيا. وثمة مشاكل مشابهة في جنوب أمريكا.. بل وفي كلّ مكان

يواجهون نفس المشاكل. هناك الاضطراب وعدم الثقة بسبب الخلافات الإقليمية. وفي كل بلاد العالم الثالث الفقيرة ينفقون على شؤون الدفاع قدرًا كبيرًا من المال بحيث لا تنفق البلاد الغنية مثله ولا معشاره. في البلاد الغنية يتحدثون عن ٣ إلى ٥ % من الدخل للدفاع، فإن زاد إلى ٧ % قامت المناقشات منذرة بأن الإنفاق كثير ولا تتحمل مثل هذا القدر. ولكن تخيلوا ترف البلاد الفقيرة إذ ينفقون ٦٠ أو ٧٠ % من دخلهم على الدفاع! ومع ذلك يحسبونه غير كاف، فيستجدون المعونة العسكرية! لقد جعلت منهم المعونة الاقتصادية متسولين، وبعد أن صاروا كذلك فلا يمكن لأحوالهم الاقتصادية أن تتحسن أبدًا. وهذا هو حال كل بلد. فمن ولع بالعيش في مستوى حياة زائف، واعتاد الاستجداء للاحتفاظ بهذا المستوى الكاذب.. لن يكون لائقًا من الناحية النفسية ليجد الاعتماد على النفس في الناحية الاقتصادية ويسعى لتحسين ظروفه. وهكذا حال الشعوب. لا يمكن أن ترى الشحاذين يصلون إلى مستوى الازدهار والثراء. فالذين يتسولون لا ينفقون يستجدون، ويأكلون ولكنهم دائمًا في حال سيئ، وتمضي حياتهم في عذابات الأمان الكاذبة. أما القانونون.. مقارنة بالسائلين.. فأحيانًا يتقدمون من ظروف الفقر المدقع، ويصيرون إلى ثراء عريض.

كُفُوا عن الاستجداء

وللأسف فإن بلاد العالم الثالث مبتلون بلعنة أخرى، فهم محرومون أيضًا من القناعة واحترام النفس. إنهم مصابون بتلك العادة القبيحة.. عادة مدّ أكفّ الاستجداء، التي جعلت مستوى حياتهم زائفًا. ولعلكم لاحظتم في بعض الأحيان أن الغني لا ينفق على طعامه في مطعم مثلما ينفق المتسول. فهذا لا يقدر للمال قيمته، لأنه يتسوله، فيشبع ويملاً معدته تمامًا، ثم يمدّ يده للوجبة التالية. ويدعو الله أن يحفظ له تلك الأيدي البارعة في التسول، وفي هذا كفايته!

هكذا سيكولوجية الأمم تمامًا، يعيشون في مستوى حياة زائف.. لا علاقة له بالحقيقة والواقع. ويبدون في بجموحة من العيش ولكنها قائمة على التسول، وبسببها يمكنون دائمًا في الخديعة. كانت مشقة الفقر كفيلة بأن تجبرهم على ضرورة الوقوف اقتصاديًا على أقدامهم، وتوجب عليهم العمل والسعي الجاد. ولكن هذا الضيق لا يشعر به سوى طائفة ممن لا حول لهم، أما أصحاب النفوذ فلا يشعرون به. فهذه الأمم منقسمة إلى فئتين: فئة قليلة العدد جدًا، تسمى الطبقة العليا، لا تكثر بحياة الفئة الثانية.. فئة الفقراء، ولا تعرف كيف يمضي الفقير أيامه في ظروف كئيبة تحت سمعهم وبصرهم. فالذين يستشعرون الألم لا يملكون سيطرة عليه.. فهم لا يصوغون السياسة القومية، وأما العقول التي ترسم السياسات وتقررها فلا يملكون المشاعر التي تحس الألم. هذا مرض عضوي عضال، فعندما ينكسر العمود الفقري ينعدم الاتصال بين الجزء العلوي والجزء السفلي، حتى لو احترقت القدم بقي الرأس لا يدري. نعم، مرض التسول مرض رهيب، مُنيت به دول العالم الثالث.

المعونة العسكرية هي "الإيدز"

والآن عن العون العسكري، أنهم عندما يشترون أسلحة باهظة الثمن يزداد اقتصادهم سوءًا على سوء. ولما كانوا لا يستطيعون الشراء يضطرون إلى استجداء السلاح من البلاد الأخرى. فيأتي مع السلاح خبراء التدريب أو

يذهب جنودهم للتدريب هناك، وهكذا تمتد شبكات التجسس إلى بلاد العالم الثالث. والسبب الرئيسي لانتشار شبكات التجسس للأمم المتقدمة لديهم هو هذا العامل نفسه. ونتيجة لتسول السلاح يخلقون فرصة انزلاق جيوشهم تحت سيطرة البلاد الأخرى. بقدر ما تفحصت موقف الأمم التي تقدم المعونة العسكرية بازاء الأمم التي تتلقاها وجدت بحسب اعترافات كتابهم صراحة وعلانية، أنهم كلما أعطوا معونة عسكرية جعلوا من ضباط جيش الدول المتلقية للمعونة عبيدًا لهم. وهذا ما يحدث في كثير من البلاد التي تتلقى المعونة. وأشد ما في ذلك من خطورة اليوم أن أمريكا ليست هي وحدها التي تسترق الآخريين بمعونتها العسكرية، بل صارت إسرائيل الآن ذراعها اليمنى، وتفعل نفس الشيء، وتصل مساعداتها إلى حيث لا تستطيع مساعدة أمريكا أن تصل مباشرة أو علانية. وهناك أماكن نجح الاثنان معًا في جرّ أهلها تحت أغلال العبودية.

ينبغي أن نتذكروا بأن العالم الثالث لا يزال سوقًا جاهزًا للأسلحة العتيقة، وكلما ينتج الغرب طرازات من الأسلحة أكثر تقدمًا.. يقتضي الأمر فتح أسواق للسلاح القديم. وهنا يكون لزامًا أن تتساقط الرؤوس في بعض البلاد الفقيرة.. لأن النزاعات التي تقع فيما بينها تخلق سوقًا نافقة لهذه الأسلحة. وحتى الآن لم يُصدّر من السلاح الأمريكي الفائض سوى تل صغير فقط.. كما لا تزال هناك جبال من السلاح السوفييتي بحاجة للبيع، وليس بعيدا أن تدخل دول الغرب الأخرى في هذه التجارة.

إذا فعندما أشبهه العون العسكري (Aid). بمرض الإيدز (Aids).. فلا فكاهة في ذلك، وإنما هو حقيقة عميقة. فمرض الإيدز الذي يثير الرعب في عالم اليوم، والذي تخبرنا به بعض النبوءات أنه سيقتل من الناس في بلاد الغرب النصراني أعدادًا كبيرة حوالي عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٨، ولا حاجة لنا الآن في تفصيل ذلك، فقد سبق وتحدثت إليكم عنه وحده في مناسبة أخرى، فإن بكتيريا هذا المرض تدخل دم المصاب وتستقر داخل نظام المناعة الدموي وتسيطر عليه. وهكذا ينقلب جهاز المناعة هذا الذي جعله الله للحماية والتغلب على المرض، فيصير نفسه مركزًا للمرض، ومن ثم لا يستطيع التحرك والتصدي ضد نفسه. وهكذا فإن العون العسكري هو إيدز الدول الفقيرة. لأن البلاد الغنية التي تعطي السلاح تسيطر على النظام الدفاعي للبلاد الفقيرة. والأدهى أنهم لا يدركون ذلك تمامًا.. كما لا تدرك الأجزاء السليمة حقيقة المرض. في بلادنا، ولا أعني باكستان وحدها، بل أعني بلاد العالم الثالث جميعًا.. تتابع أعين المخابرات الأخطار الداخلية وحدها، ويتخذون ضدها إجراءات مضادة للثورة، وينشئون الأجهزة التي تبقى يقظة فعالة ضد التمرد الداخلي. ولكي يتعلموا كل الحيل لمحاربة التمرد يتجهون في معظم الأحوال إلى أمريكا، وفي كثير من المرات إلى إسرائيل!.. بل أن سيريلانكا تعلمت الأساليب المضادة للتمرد من إسرائيل، أمّا المتمردون فقد درسوا أساليب الثورة أيضًا في إسرائيل! و في ليبيريا يقول المراقبون بأن إسرائيل قامت على حراسة رئيس الجمهورية وأحاطوا به تماما حتى أنهم منعوا أخبار التمرد من الوصول إليه! هناك قائمة طويلة بأسماء بلاد أفريقية وآسيوية تأتي أمريكا وإسرائيل في مقدمة من يعلمونها تلك الوسائل.. في حين أن الخطر الحقيقي الذي تواجهه أما هو من أولئك المعلمين! أنهم يسيطرون على هذه البلاد من خلال جيوشها. إذاً فالحاجة ماسة لتأسيس منظمة تجسس في كل بلد من بلدان العالم الثالث لتفحص الجيش وتراقب علاقاته مع القوى أي

كانت، وتتعرف على ما دخله من أفكار مسمومة وما أُقيم من صلوات، وتضع الضباط تحت المراقبة. أن الأخطار تأتي من الخارج، وهناك أخطار أقل تنبع من الداخل.. فإذا استطعتم محاربة الأخطار الخارجية كانت الأخطار الداخلية غير ذات شأن. نعم، تنشأ الأخطار الداخلية فعلا، ولكنها تكون دائما وليدة الاضطهاد، وإلا فمن المحال أن يواجه جيش الأمة خطرا من مواطنيها أنفسهم. وهذا هو الجانب الثاني الذي يحتاج إلى انتباه. الأمم المتقدمة يثيرون ضجة شديدة حول ضرورة إنهاء الدكتاتورية، في حين أن الدكتاتورية وحدها هي المناخ الأمثل الذي يناسبهم لاسترقاق شعوب العالم الثالث، ذلك لأنه حيثما تكون الدكتاتورية تتولد المخاطر الداخلية، ولحماية الدولة منها لا بد من حليف خارجي. ويجدون الحليف الخارجي بالطريقة التي شرحتها آنفاً. وما دامت الدولة تتمثل لأوامر الحليف الخارجي فسوف يمدّها بالمساعدة، ولكن لو حدث وفعلت أي شيء لا يناسبه رفع عنها تأييده على الفور. هذه هي اللعنة التي تعاني منها بلاد العالم الثالث. والآن.. حان الوقت ليستعملوا عقولهم. لقد بدأت مرحلة جديدة من الاستعمار، وبرزت أخطار شديدة. فلحماية حريتك الشخصية، وللمحافظة على احترامكم لأنفسكم، ولخلق احتمالات الحياة الكريمة مع الأخوة بين الأوطان.. لا بدّ من أن تتفكروا بجدية وعمق في كل هذه الأمور، وتتخذوا الخطوات السريعة التي تكفل تحقيقها.

أضرار المعونة الاقتصادية

وأوجز لكم الأضرار التي تترتب على قبول المعونة من البلاد الغنية:

أولاً: البلد المعطي يعطي المعونة بعد أن يجعل البلد المتلقي لها يعاني الخزي والإذلال، ويتعامل معه باستعلاء، ويهدد بقطع المعونة لو حاول المتلقي استعمال حقه في حرية الفكر والضمير، كما فعل بوش بالملك حسين مؤخراً.

ثانياً: يضع البلد المعطي قيوداً على معونته تضر بالحرية الوطنية.

ثالثاً: تحتوي المعونة على قدر كبير من القروض ذات الفائدة الربوية، وتضاف عليها أعباء ثقيلة كتكاليف الخبراء المستشارين. يدخل ذلك كله في قيمة القرض مما يستهلك مقداراً كبيراً من المعونة. وهناك حالات عديدة ومريرة في إفريقيا وآسيا حيث بيعت للدول الفقيرة تحت اسم المعونة معدّات وآلات بدائية بأسعار مرتفعة، ولا تستطيع معظم هذه الصناعات منافسة منتجات التكنولوجيا الحديثة. وبالإضافة إلى هذا.. هناك كثير من العيوب تعاني منها صناعات العالم الثالث باستمرار.. مما يقلل من قدرتهم على سداد القروض، ويستمر عبء الديون في ازدياد. ولقد أصبحت كلّ بلاد أمريكا الجنوبية تقريباً مقيدة بأغلال القروض. ولم أرَ دولة قطّ تتلقّى المعونة من أمريكا أو غيرها من الدول الغنية وخفّ عنها عبء الديون. إنه وُزِرَ يزداد يوماً بعد يوم حتى يستنفد شطراً كبيراً من الدخل القومي في سداد الفوائد، لذلك لم نرَ أبداً البلاد التي تتلقّى المعونات أو التي تستجديها واقفة على ساقيها مرة أخرى. ومع المعونة هناك المعاملة المخزية، والتهديد بوقفها عند الخلاف، وهذا إلى جانب تخريب الاقتصاد وتدمير الشخصية القومية أيضاً. لذلك، وليس حفاظاً على الكرامة فقط، وإنما لمصالح بعيدة المدى، يستلزم الأمر رفض المساعدات المقدّمة من القوى العظمى مع الشكر.

نظام اقتصادي للمساعدات

والبلاد الإسلامية التي حباها الله تعالى بالثروة البترولية.. عليها واجب إقامة نظام جديد للمعونة تحت ظل مبادئ الإسلام، بالتعاون مع البلاد غير الإسلامية المستعدة للتعاون على البرّ. وفي مثل هذا النظام تُعطى الأفضلية فوراً للتحوّل إلى الاكتفاء الذاتي في إنتاج الطعام بالبلاد الفقيرة التي يُعلّق سيف المجاعات على رقابها، أو لتقوية اقتصادهم ليقدروا على شراء طعامهم من الخارج.

أن مسلك العالم تجاه المجاعات التي تضرب بلاد أفريقيا حالياً مسلك مخزٍ وغير مُجدٍ. أن المجاعات لا تحدّ فجأة كالزلازل أو البراكين، بل بوسع الاقتصاديين معرفة أين ستكون المجاعة قبلها بسنوات. أنهم بتجرد عن الرحمة ينتظرون حتى تقع المجاعة، ويضعف الناس من الجوع.. ليقدموا لهم الطعام مصحوباً بالمساومات السياسية والعقائدية، وليربطوا الجوعى بقيود العبودية.

فعلى ضوء الشروط التي وضعها الإسلام، ينبغي أن يصوِّغوا نظاماً للمساعدات يحرّر الناس ولا يستعبدهم. ولهذه الغاية لو أن بلاد البترول الثرية أعطت لوجه الله تعالى ورحمة لبي الإنسان ٢,٥ % من دخلهم زكاةً.. لأمكن أن تزول لعنة الجوع من معظم البلاد الفقيرة. وينبغي أن يضمّوا معهم اليابان في هذا المجال، ويجب أن تتفق بلاد العالم الثالث مع اليابان صراحة حول ما إذا كانت اليابان تريد العيش مع بلاد العالم الثالث، أم تحسب نفسها في عداد بلاد الغرب. إذا أرادت أن تعيش مع بلاد العالم الثالث فينبغي أن تقدم تعاوناً كاملاً لحل مشاكل العالم الثالث، وخصوصاً مشاكلهم الاقتصادية، والأحرى بها أن تقودهم وتلعب دوراً قيادياً.. وبدون ذلك لن تبقى مع العالم الثالث، كما لن تعدّ من بين الأمم ذوي البشرة البيضاء.

كيف تحل مشكلة كشمير

ولنتحول ناحية المشاكل الداخلية وندرسها. أعتقد أن هناك ثلاثة حلول بالنسبة لقضية كشمير تستحقّ النظر، لأن الموقف الحالي قطعاً غير مقبول، ولو استمرّ هذا الوضع لانتهى بتدمير البلدين. وأوّل هذه الحلول هو استفتاء الأقاليم الثلاثة التي تتكوّن منها كشمير: آزاد كشمير، جامو، ووادي كشمير، هل يرغبون في البقاء سوياً، أم تنضمّ آزاد كشمير إلى باكستان، وتنضم جامو إلى الهند، ويبقى وادي كشمير مستقلاً؟ وأمّا الحلّ الثاني أن يستقلّ وادي كشمير وحده، ويستقلّ القسمان الآخران جامو و آزاد كشمير على حدة. والحلّ الثالث أن تتحد الأقسام الثلاثة في دولة واحدة.

أن القرار متروك لتلك البلاد لتتخذة بنفسها وهذا حقّهم. أمّا بقدر ما أرى فالحلّ الأوّل هو أكثرها ملائمة وقدرة على الاستمرار، وأفضل لتوطيد السلام في المنطقة.. فشبّ آزاد كشمير لهم طباعهم المشتركة، ولكنهم مختلفون عن شعب وادي كشمير بطباعهم و شخصيتهم المنفصلة، كما أن أهل جامو لهم شخصية منفصلة تماماً، وهم أقرب ديناً إلى الهند. فإذا أرادوا الاستقرار والثبات فحلّ هذا الحلّ أفضلها. ولكن ينبغي أن يعطوا الحرية مشروطة بعدم الدخول في محالفات مستقلة مع بلاد أخرى، حتى لا يتهدد سلام الهند وباكستان. ويمكن تقرير هذا وتسويته باتفاقية مشتركة. وإذا لم يتم ذلك، ولم يصلوا إلى سلام مع الشيخ أيضاً، ولم يسوّوا بعض المسائل الداخلية

الأخرى.. فلن يستقر السلام في المنطقة.

تصحيح الظروف الداخلية

وهناك اختلال في التوازن البشري داخل باكستان يتطلب تصحيحاً.. مثلاً ما بين السندي والبنجابي والبلوتشي والباتاني. ثم هناك فوارق دينية. كل هذه الأمور تشبه المفرقات أو البراكين، يمكن أن تنفجر في أي وقت. وهذه هي نفس المشاكل التي تستغلها الأمم الأخرى. لذلك، وقبل أن تجد دولة أخرى فرصة لاستغلالها.. يجب أن تصححوا الظروف الداخلية عندكم، وتصححوا أيضاً العلاقات مع جيرانكم. وأعظم الفوائد التي تجنونها بذلك أن يتوجه انتباهكم نحو تحسين مركزكم الاقتصادي. وبالتعاون المتبادل.. وبروح ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾.. بدون إقحام الدين في ذلك.. تُزداد احتمالات التعاون في كل شيء طيب، وينخفض الإنفاق العسكري. وكلما نقص الإنفاق العسكري تقدم وازدهر الاقتصاد، وزادت احتمالات التحسن في موقف الفقير. قلتُ (احتمالات)، لأن كل هذه الأشياء وحدها ليست كافية لتحسين وضع الفقير.. ما دام حال الحكام غير سليم. إذا كان فكر الحكام سقيماً.. لا يباليون ولا يحسون، ولا يستحون، ولا ينفكون بينون الفنادق الفخمة والمطاعم الفاخرة، ويؤمها جماعات الناس من بعد غروب الشمس وإلى ساعات متأخرة من الليل، ويسهرون في الفنادق وينغمسون في حياة اللهو والترف، ومدينة لاهور مضيئة، وكراتشي تتوهج بالألوان، إذا استمر هذا الميل، ولم يلتفت أحد بنظره إلى حقيقة ما تحت هذه الأضواء من ظلمات الظلم، ولو تحتل نظرة داخل هذا الظلام فسترى صوراً مؤلمة لإنسانية مضطربة، تقشعر منها الجلود، فلن تتحسن حال الفقير. أضع أمامكم مثلاً صغيراً.

ذهبت ابنتي (فائزة) إلى قاديان للاجتماع السنوي للجماعة. وفي طريق عودتها كانت تنتظر القطار مع طفلها في محطة (أتاري). فأخرجت شيئاً من حقيبتها ليأكلوا، وإذا بحشد من الأطفال الصغار الجوعى يلتف حولهم فجأة. كان من الواضح أنهم جوعى وليسوا متسولين. فوزعت عليهم الطعام، ثم وزعت عليهم ما أهدي لها من صديقاتها في قاديان مما يصلح للطعام. أمّا الذي أريد بيانه لكم فليس توزيعها للطعام.. فكل شخص له قلب إنساني ينبض سوف يفعل مثلما فعلت، لكن ما يستحق الملاحظة بصفة خاصة أن في هؤلاء القوم الفقراء أخلاقيات عالية راسخة. أنك تجد من الإنسانية في الطبقات الدنيا أكثر مما في الطبقات العليا. قالت ابنتي: بعدما وزعت عليهم كل ما كان معي بقيت معي علبه صغيرة من "الكوكا"، فناولتها لبنت كبيرة منهم. فأخذت منها رشفة، ثم أعطت لكل طفل منهم رشفة، وفي كل مرة كان ينعكس من وجهها شعور بالرضا والارتياح مثل شعور الأم وهي تطعم أطفالها. ثم نظرت إلي ابنتي مبتسمة كأنها تقول: انظري كم استمتعت بها! كان هناك صف من الأطفال، واحداً بعد الآخر، كلما أخذ أحدهم رشفة أحس كأنما أعطي ماء الحياة. وفيما بعد.. تحرك القطار، فجرى الأطفال يدفعهم شعور الامتنان، يلوحون بأيديهم، والشرطة تحاول منعهم، ولكنهم استمروا على ذلك حتى اختفوا عن ناظرها.

عندما كانت ابنتي تروي لي هذه الحادثة لم أكن أدري: هل كانت نظرتي لها أشد حبا أم نظرات الأطفال الذين رمقوها بنظرات الحب بسبب حنانها؟

القيم الإنسانية تنقذ العالم

ثم تفكرت أن مثل هذه الحوادث تقع في الحياة عندما تسود القيم الإنسانية على روابط الدم، وأن أعظم العصور التي تحققت فيها غلبة القيم الإنسانية على روابط القربى كان عصر سيدنا محمد المصطفى ﷺ. لا شك أنه عصر أخذت فيه روابط القرابة الأسرية مقاماً ثانوياً، ورفعت عظمة سيدنا محمد ﷺ القيم الإنسانية عالية حتى أقامها على مكارم الأخلاق. هذه القيم الإنسانية الأخلاقية هي التي سوف تنقذ العالم الثالث. وهذه هي القيم التي تُداس اليوم تحت الأقدام. وقدّر الله تعالى يدعكم تُداسون تحت أقدام الأمم القوية. لم لا تدركون هذه العلامة من قدر الله؟ أنه لما يدعو للثناء أن هذين البلدين.. في جشعهم لامتلاك جنة كشمير، دفعوا ببلادهم إلى نار الجحيم! مهما اتخذتم من حلول لمشاكل العالم الثالث.. فما دمتم لا تُحيون فيهم احترام النفس، ولا تجددون مشاعر العطف، ولا تعزمون على حماية القيم الإنسانية، ولا تتخذون الخطوات لتحقيق هذا العزم.. فأن مصير العالم الثالث لا يمكن أن يتغير، ولن يستطيع العالم الثالث أن يتحرر.

وبلاد العالم الأوّل، البلاد المتقدمة.. لا ينعمون بالحرية فحسب، بل ويزدادون نشاطاً وفعالية لاستعبادكم أكثر من ذي قبل. وكما قلتُ آنفاً.. تتحرك خطواتهم الاقتصادية في اتجاه يضطّروهم فيما بعد، أرادوا أو لم يريدوا، إلى سحق أمم العالم الثالث تحت أقدامهم أكثر وأكثر، لأنهم لن يخفضوا مستوى حياتهم، لأن سلطاتهم الإدارية غير قادرة على نصح الناس بالنزول عن شيء من مستوى حياتهم المرتفع، وأي حزب سياسي سوف يُقدم على ذلك يخسر معركة الانتخاب. فهم مقيدون بإحكام في فخّ شرير.. بحيث تجدونهم مضطرين لارتكاب الفظائع تلو الفظائع. فعلى أمم العالم الثالث أن تنهض بنفسها للدفاع عن نفسها، وبدون ذلك لا يمكنهم التحرر لا من جيوشهم، ولا من شرورهم ومفاسدهم، ولا من كل تلك اللعنات التي ذكرتها.

عندما تصير الأمم فريسة لمثل هذه الشرور والأمراض.. فما فائدة شكواهم من أنهم يموتون والنسور تقبع بجوارهم تنتظر هلاكهم؟ إن المرض يتطوّر بداخلكم للقضاء عليكم، وهذا المرض نفسه يدعو البكتيريا لتدخل في أجسادكم. لا شك أن البكتيريا تسبب المرض، ولكن البكتيريا لا تستطيع إيذاء الجسم الصحيح. المرض ينشأ بداخلكم ولا يأتيكم من الخارج. عندما تضعف القوة الدفاعية للجسم تنمو بالبكتيريا وتتغلب على الجسد وعندما تكتمل لها السيطرة.. يكون الجسم عند فم الموت، وتحتشد النسور لتلتهم اللحم وتنهش العظم. إنها عمليات طبيعية تأتي حتماً واحدة إثر أخرى. والواقع أنها قدر لا تستطيع قوة في العالم إنقاذكم منه.. ما لم تعزموا أنتم على ذلك. فقبل أن تصلوا إلى هذه النهاية حيث تُلقى أجسادكم في العراء عيرة للآخرين، أو تصيرون من أهل القبور.. اعزموا من الآن أن تجعلوا من القيم الأخلاقية وتعاليم سيدنا محمد المصطفى ﷺ قانون عملكم، فتحفظوا هذه القيم الأخلاقية السامية وتعيدوا إلى الحياة ما فقدتم من القيم الإنسانية.. فهذه السبيل، لا غيرها، هي الوسيلة الوحيدة لتحريركم من عار العبودية.

تشكيل "أمم متحدة" جديدة

وثمة أمر هام آخر.. فقد لُفنت حرب الخليج وما جرى خلالها من أحداث، درساً آخر لدول العالم الثالث، هو

أن منظمة الأمم المتحدة صارت عتيقة مهملة فيما يتعلق بمصالح العالم الثالث، وتستحق النبذ في سلة المهملات. وما دامت أمريكا في نزاع مع الاتحاد السوفييتي، وكان هذا منافسا لها.. لم تكن الأمم المتحدة بقادرة على تدمير الدول الفقيرة. ذلك لأن كلا من أمريكا وروسيا تملك حق استعمال الفيتو والوقوف إلى جانب البلاد الفقيرة، وكان القرار يتوقف على ما إذا كانت البلد صديقة لأمريكا أم للاتحاد السوفييتي. والآن لم يعد في العالم سند للدول الفقيرة. لقد اتحدت القوتان الكبيرتان.. لا على هدف صالح، وإنما لغرض شرير. ولذلك لما قال القرآن الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (سورة المائدة: ٣). لم يُرد مجرد التعاون.. وإنما التعاون فيما هو خير وليس في الشر. ولكن سياسة العالم تتحد بلا اعتبار لخير أو شر. يتعاونون فقط فيما لهم فيه مصالح مشتركة. هذه هي القرارات التي اتخذت في هذا العالم، وهذه الاتفاقيات التي تمت بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا، وألقوا بالبين جانبا حتى الآن بطريقة تجعلها بلا حول للتدخل، وتزداد ضعفا اقتصاديا حتى تضطر للكروع أمامهم. وإذا استمر الحال هكذا، فسيفتصر عمل الأمم المتحدة وما يلحق بها من منظمات كمجلس الأمن مثلا.. على قهر البلاد الضعيفة، ولن تكون وسيلة تحقق مصالح البلاد الضعيفة، بل سوف تستخدم لصالح أولئك الذين يقبلون بالعبودية للقوى العظمى ويلعقون أقدامها. هؤلاء تكون هذه المنظمة الدولية مصدر ثراء، وهبئ لهم التسهيلات، وتسبغ عليهم ألقاب الشرف، وتمد لهم يد الصداقة والمودة. ستحصل بلاد العالم الثالث على كل المصالح، ولكن بالاستجداء في خزي ومذلة. وأما إذا أرادت أمة في هذا العالم أن تعيش على صلة بالأمم المتحدة، رافعة رأسها على أساس من الكرامة والاحترام، فلن يتاح لها ذلك.

ويمكن حل هذه المسألة أنه كما أنشئت عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩، وتأسست الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، يجب الآن بعد هذه الحرب الخليجية المريعة التي أشعلها جانب واحد أن تتأسس أمم متحدة لدول العالم الثالث، لا تضم سوى الأمم الفقيرة العاجزة. إن حركة عدم الانحياز، أو مجموعة الأمم المحايدة، قد أصبحت اليوم عتيقة بلا معنى ولا حياة. يجب الآن أن تبدأ حركة جديدة، يمكن أن تلعب فيه الهند وباكستان والعراق وغيرها دورا هاما. ولكن ينبغي عليهم أولا إزالة التحيزات الدينية. لذلك فنصحي للبلاد الإسلامية هي أنه، وإن كان من الواجب أن يكونوا على علاقات المحبة فيما بينهم، والوفاء بمسئولياتهم في جو من الأخوة الإسلامية الخاصة، ولكن عليهم ألا يدعوا الهوية الإسلامية تتصارع مع الهوية غير الإسلامية. لو استمر استقطاب المسلمين في جانب وغير المسلمين في جانب آخر، وفي اعتباركم أن قوة الغرب وحدها غير إسلامية.. فاعلموا أن دول العالم الأخرى أيضا توجس منكم خيفة. لا تنسوا أن اليابان غير مسلمة، وكذلك كوريا وفيتنام والهند. فكل هذه القوى العظيمة في العالم يرون أن رسالتكم قد وصلتهم أيضا. ولذلك لو جعلتم الهوية الإسلامية في قتال مع غير الإسلامية لوقعتهم في سياسة انتحارية غاية في الحماسة، فلن تجنوا شيئا، بل ستفقدون ما لديكم.

وإذن فلا يستطيع العالم الثالث أن يتحد ما داموا لا يعملون وفقا لتعاليم القرآن الكريم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، وهو تعليم لا يشير إلى الفوارق الدينية، بل طبقا له يمكن التحالف مع الوثني أو اليهودي أو النصراني

أو حتى مع الملحد. فقط ينبغي أن تتعاملوا بالبر والتقوى، وتعاونوا على ما هو خير فقط. على هذا المبدأ من التعاون ينبغي أن تبسطوا يد التحالف إلى هذه الأمم. ولذلك فمن الضروري جدا إنشاء مجلس الأمم المتحدة للأمم فقيرة.

ويجب أن يتضمن دستور هذه المنظمة ما يلزمها بإصدار القرارات التي تستطيع تنفيذها حقاً. كما يجب أن يتعهد كل عضو فيها بالتزامه بقبول حكومة العدل في كل حال. وينبغي أن يكون هناك نظام فعال وعادل، للتداول والتشاور تحت إشراف هذه المنظمة، لحل القضايا والمشاكل المتعلقة بدول العالم الثالث. كما لا بد وأن يتقوى في هذه الأمم الضعيفة الاتجاه الذي ينأى بهم عن اللجوء إلى الأمم القوية لحل قضاياهم والتدخل في شؤونهم.

تناقضات "الأمم المتحدة"

إن بهيئة الأمم المتحدة الحالية تناقضات متأصلة، وينبغي أن نتعلم منها حتى لا تنطوي مؤسساتنا على تناقضات. وكما قلت.. إنها قاعدة قهرية ظالمة.. أن أية دولة من الدول القوية دائمة العضوية، مثل أمريكا أو الاتحاد السوفيتي أو فرنسا أو بريطانيا أو الصين، لو أرادت أن تعتدي على دولة وتهاجمها بنفسها أو عن طريق دولة عميلة تابعة لها، فلا يملك أحد حق الانتقام من المعتدي.. ما دامت واحدة من الدول الدائمة في مجلس الأمن مصررة على حمايتها من العقاب، اعتماداً على حق الفيتو أي الاعتراض على قرارات المجلس. إنهم لم يقرروا حتى اليوم الصفات الأساسية لهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن بالضبط، هل هي محكمة؟ وإذا كانت محكمة فما فائدة محكمة العدل الدولية؟ وإذا لم تكن محكمة.. فما نوع القرار الذي يمكنها اتخاذه بصدد النزاعات؟ وإذا لم تكن محكمة فلا سلطان لها على وضع قراراتها موضع التنفيذ. وإن كانت محكمة فإلى أي مدى يمتد تأثير قراراتها؟ وهل تؤثر على الدول غير الأعضاء فيها؟ أما إذا كانت هيئة استشارية فلا مجال لتنفيذ قراراتها بالقوة، اللهم إلا إذا كانت القواعد قواعد أخلاقية فقط، متفقا عليها للتطبيق على كل الأمم على السواء. وإذا كانت منظمة ليتعاون أعضاؤها فيما بينهم فكيف ينشد هذا التعاون؟ وأي الوسائل تتخذ لذلك؟ وإذا لم تحصل دولة على التعاون فماذا تفعل؟ هذه هي المسائل التي يجب اتخاذ قرارات بشأنها.

وإذا كانت منظمة لمساعدة الأمم الفقيرة فيما هو للصالح العام.. فيجب في هذا الحال أيضاً بسط موقفها بوضوح، ويجب أن تعلق عن اعتبارات السياسة واللون والجنس، وتضع برنامجاً لمساعدة البلاد الفقيرة أو المنكوبة بالكوارث الطبيعية.. بحيث تكون إدارة المنظمة قادرة على اتخاذ قرارات حرة مستقلة، كما تطلق يدها في تنفيذ ما تصل إليه من قرارات.

وهناك مسألة يجب حسمها.. تلك هي كيفية تنفيذ أحكام محكمة العدل الدولية للأمم المتحدة بحيث تلتزم بقبولها الدول جميعاً بما فيها القوى العظمى. وما لم يكن هناك جواب كاف لهذه المسائل يضمن حماية حقوق الدول الفقيرة والضعيفة.. ستبقى هذه المنظمة أداة خديعة تحتكرها الأمم القوية لصالحها وحدها.

وأهم النقاط هي أنه إذا كانت هيئة الأمم محكمة فيبرز هنا سؤال: إذا صدر قرار بالأغلبية في صالح دولة مسكينة لا تحظى بمساندة من أمريكا أو روسيا أو الصين أو فرنسا أو بريطانيا، وقرر المجلس بأغلبية الثلثين أن هذه الدولة

معتدى عليها وينبغي مساعدتها.. فكيف ينفذ هذا القرار؟ أي نوع من المحاكم هذه التي لا تحظى بتعاون القوى القادرة على تنفيذ قراراتها، وليس لها وسائل معينة لنشاندان هذا التعاون.

هذا يماثل تماما ما حدث عندما تقاضى الهنود الحمر الأمريكيان ذات مرة أمام المحكمة العليا الأمريكية ضد الحكومة الأمريكية. قالوا: لقد وقَّعت معنا الحكومة معاهدات مرات ومرات، وأعطينا المواثيق المسجلة بأن أرض كذا وكذا تخصنا.. ومع تكرارها؛ ومنحونا الحماية الكاذبة مرات ومرات، وأعطونا المواثيق المسجلة بأن أرض كذا وكذا تخصنا.. ومع ذلك دخلوها وطرَدونا منها عنوة، وما برحوا يدفعوننا حتى أوصلونا إلى حال لا نستطيع معه البقاء بين الأحياء، ووصل الموقف الآن إلى حد إما الحياة وإما الموت. فأصدرت المحكمة الأمريكية العليا حكمها في صالح الهنود الحمر، وقالوا: إن شكواكم صحيحة، وكان موقف الحكومة الأمريكية معكم مجافيا للعدل، ومن حقكم إلغاء تلك القرارات الحكومية السابقة وتنازلون حقوقكم. ولما عُرض حكم المحكمة هذا على الرئيس الأمريكي قال: إننا بالفعل نعلن إعجابنا بحكم المحكمة، وعلى المحكمة أن تنفذ الحكم!

هذا بالضبط هو موقف هيئة الأمم المتحدة اليوم. إذا قررت، ولو دولة واحد فقط من الدول الأعضاء الدائمة الخمس، عدم تنفيذ قرارات الأمم المتحدة فلا يمكن تنفيذه. إنها منظمة للعدل غريبة حقا؛ فلو اتحدت الأمم القوية واتفقوا على العدوان.. فسوف يتم تنفيذ كل شيء؛ أما إذا قرروا أن يسدوا الطريق أمام أي قرار فلن تستطيع تنفيذه دول العالم منفردة أو مجتمعة، ذلك لأن إحدى الدول دائمة العضوية تقف ضد القرار وترفض تنفيذه. وإن كانوا جميعا يوافقون عليه، كما هو الحال في قضية فلسطين.. التي وافقت القوى العظمى الخمس على الحلول القاضية بانسحاب إسرائيل من الأرض العربية المحتلة، فلن يمكن تنفيذ القرار. فعجيب أمر هذه المنظمة لسلام العالم، وغريب شأن هيئة الأمم المتحدة هذه إذ لها القدرة على اتخاذ القرارات ولا قدرة لها على تنفيذها. وإنما القدرة على التنفيذ في يد القوى العظيمة التي تجبر جميع بلاد العالم على الشعور بأنها مدينة لها. إن مثل هذه المنظمة لا يصلح للبقاء.. لأنها منظمة لاستمرار العبودية، وهي منظمة لحماية الاستعباد، وليست منظمة لحماية الحرية! فإذا لم تنهض دول العالم الثالث ضد هذه المنظمة، أو نقول: إذا لم تدفعوها إلى التعاون باسم العدل وتغيير قوانينها الجائرة.. فلن تتحرر أمم الأرض، بل وستبقى هذه المنظمة لتخلق لهم مزيداً من الأخطار، وتستخدم لأهداف رهيبة مرات ومرات، ولا داعي الآن للدخول في تفصيل أكثر.

منظمة "أوبك" جديدة

ومن الضروري بالمثل أن تنشئ البلاد المنتجة للبتروال منظمة (أوبك) جيدة، فلا يضم هذا المجلس عبيدا مخلصين لأمريكا من مصدرى البتروال. لا مانع أن تشترك فيه الدول التي تتعامل مع أمريكا، إذ ليس مبدؤنا أن تؤسس التحالفات من أجل العداوة، فالقرآن الكريم لا يذكر ذلك في أي موضع. فينبغي أن يقوم التعاون على الفضيلة. أما لو تحالف أحد من القوى الكبرى بهدف انتهاك المبادئ فيعرض بذلك مصالح البلاد الفقيرة للخطر، فعندئذ يجب أن تتحالف الدول الفقيرة للدفاع عن نفسها. لذلك ينبغي أن تلتقي مع الدول البترولية في العالم الثالث.. مثل نيجيريا وإندونيسيا وإيران والعراق وماليزيا وسبا، وغيرها من الدول المنتجة الأخرى.. في منظمة أوبك

جديدة خاصة لهم. وإذا صاغوا سياستهم معا فلن تستطيع قوى الغرب أن تفرض عليهم عدوانا يمثل ما فعلت مع العراق وأكرهته على تصرف غير حكيم. من الممكن أن تضغط عليهم السعودية والكويت لفترة لما لثروتهم البترولية الكبيرة من قوة، ولكن لو أنهم صمدوا وثبتوا على مبادئهم وأهدافهم فسيرون بعد فترة من الزمن أن الدول المنتجة للبترول تجني منافع أكثر.

أما دول العالم الثالث غير البترولية.. فعليهم أن يشكّلوا اتحادا للدول غير المنتجة للبترول؛ ذلك لأنه عندما يحدث في العالم نزاع من أي نوع تحدث اضطرابات وحروب، فتعاني الدول الفقيرة أشد الخسارة. فعليهم إذن أن يتحدوا لحماية مصالحهم، ويعقدوا اتفاقيات طويلة الأمد مع البلاد البترولية، وذلك كي يتمكنوا على ضوء خبراتهم الماضية من حماية أنفسهم من أخطار المستقبل المحتملة.

اتحاد الدول المصدرة للأيدي العاملة

وهناك اتفاقيات صغيرة أخرى لازمة، إذ ينبغي على الشعوب المصدرة للأيدي العاملة إلى بلاد البترول ألا يتركوا عمالهم يُذلّون ويُهانون ويُعاملون معاملة ظالمة، ليس لهم من يرفع حقوقهم؛ إذ تتضرر بذلك كرامتهم القومية، ويتولد فيهم نوع من عدم الحياء. لم تكن عندي فرصة لزيارة هذه البلاد، ولكن حكايات المعاملة التي تبدأ منذ الوصول إلى المطار.. يرويها السياح والعاملون في بلاد الخليج بما يبين أنها معاملة غير كريمة، لا يتحمل سماعها من لديه إحساس بالشرف. يقولون مثلا بأنه عند وصول الطائرات الباكستانية إلى المطارات الخليجية.. يضرب رجل الشرطة المحلية كعوبهم بهراوته آمراً: قف هنا! تعال هنا! كل ذلك بطريقة مخزية كما تساق الأنعام في بعض البلاد المتوحشة؛ لأنهم في البلاد المتقدمة يبدون احتراماً أكثر للماشية والحيوانات. فكم سيطول بهم احتمال ذلك؟ يعاملونهم كالعبيد، ولا حماية لحقوقهم؟ ما أفضعه من جور أن يعمل هؤلاء الفقراء عملا شاقا يستحقون عليه أجرا يبلغ مائة ألف أو مائتي ألف.. ثم يكون بوسع صاحب العمل الامتناع عن الوفاء بحق العامل إذا شاء! وإن ذهبوا إلى المحكمة فلا يسمع أحد للعمال. وإذا كان صاحب العمل ظالما قاسيا، مطمئنا إلى حرته في أن يفعل ما يشاء بالعامل.. فإن ذلك يزيد في إذلال العامل بما هو أشد من ذل العبيد.

يجب على هذه البلاد: الهند وباكستان والفيليبين وغيرها من البلاد المصدرة للأيدي العاملة.. أن يتفوقوا سويا على حماية شرف وكرامة عمالهم. فإذا لم يجدوا استجابة فليتحدوا ويلقنهم درسا بكل ما لديهم من إمكانيات. وبهذه الطريقة، وعلى هدي نصيحتي لهم، سيصلون إلى شيء من التوازن يؤدي إلى تحقيق السلام. والتوازن اسم ثانٍ للعدل.. الذي يسميه القرآن الكريم بـ (الميزان). لا يتوطد السلام بأوامر من ملوك القوى العظمى والرؤساء والمستبدين؛ ولكن السلام يتوطد ولا ريب، نتيجة للتوازن. والتوازن يحقق العدل، بل الواقع أنهما اسمان لمسمى واحد. هناك حاجة لإقامة توازن جديد في سياسة العالم، وهناك حاجة للتصميم على أن تكون كل منظمة وكل تحالف بيننا مؤسساً على سيادة العدل. وكل المؤسسات التي أشرت إليها تقوم على شريطة أن تعزم كل دولة مشاركة على قبول سيادة العدل وليس على سيادة المصلحة الفردية. ثم عليهم أن يضعوا الترتيبات التي تخلق وسائل إقامة العدل. وينبغي استبعاد أي بلد لا يقبل بهذا المبدأ خارج المنظمة على الفور.

نصيحة وإنذار لإسرائيل

والمسألة الأخيرة التي أود ذكرها لكم موجهة إلى إسرائيل، وتتضمن نصيحتي لها. هناك انطباع عام بين المسلمين بأن قيام إسرائيل كان نتيجة لمؤامرة الغرب ودهاء اليهود، ولهذا الانطباع مبرراته. ولكن إذا لم يشأ القدر الإلهي ذلك ما أمكن حدوثه أبدا. من الضروري أن نتفهم هذا القدر الإلهي، الذي أثار موضوع إسرائيل، لنجد حلا للمشكلة.

أود أن أفسر لكن الموضوع استنادا إلى القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، وأقترح شيئا على إسرائيل، لأن السلام العالمي يتوقف اليوم على إسرائيل وقرارها، وهذا ما نتعلمه من القرآن أيضا. في سورة الإسراء، وتسمى أيضا سورة بني إسرائيل.. هناك آيات تتعلق بهذا الموضوع الذي سأعرضه عليهم.

وعدود بشأن اليهود

تقول السورة: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علوا كبيرا﴾ (الآية: ٥) أي قدر الله تعالى في الكتاب.. وهو سفر مزامير داود، أو كتاب القدر والمصير.. أن تعكر إسرائيل صفو السلام في الأرض، وتقوم بتمرد كبير.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا﴾ (الآية: ٦).. عندما يأتي وقت إنجاز الوعد الأول نرسل عليكم محاربين أشداء يخرقون إلى داخل بيوتكم. وسيتم هذا الوعد حتما، ولا يملك أحد إرجاءه. ستقومون بشورتكم الأولى وتناولون العقاب المقدر لها.

﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ (الآية: ٧).. بعدها نعيد إليكم القدرة عليهم، ونساعدكم بوسائل شتى من مال وبنين، فتكثرون وتصيرون قوة عظيمة.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ (الآية: ٨).. فإذا كنتم طيبين عطوفين، وأقلعتم عن مساوئكم ومعاصيكم السابقة.. فسيكون عطفكم في الواقع لأنفسكم. أما إذا انتهجتم سبيل الشرور التي كنتم ترتكبونها من قبل فسيرتد عليكم هذا الشر. والواقع أن ما تفعلون من شر تفعلونه بأنفسكم. وعندما يأتي موعد تحقق العهد الثاني، وترتكبون الشرور مرة أخرى، فسوف تذوقون تبعات سوء أفعالكم، وتلقى وجوهكم الخزي والكآبة.. فيدخلون عليكم ويدمرون معبد سليمان.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ (الآية: ٩).. عسى تعني أن ذلك ممكن، أو ممكن تماما، فإذا شاء الله تعالى بعد ذلك رحمكم. ولكن تذكروا، وأنتم تنعمون برحمة الله، أنكم إذا عدتم إلى ارتكاب الشرور والإصرار عليها.. فلسوف نعود عليكم بالعقاب الذي ذقتموه من قبل مرتين. ويبدو من ذكر عقاب جهنم في آخر الآية أنهم لن يقعوا في خطأ رابع في هذه الدنيا.. وبعد ذلك تنتهي أمور الدنيا وسيكون القرار الأخير يوم الحساب حيث ينالون عقاب الجحيم.

الدمار الأول

أخبركم بإيجاز عن العهدين السابقين وكيف تحققا. بدأ العهد الأول عام ٧٢١ ق.م، عندما قضى الآشوريون على المملكة الشمالية من الملكتين اليهوديتين واحتلوها. وكانت هذه المملكة ترتبط بمدينة ساماريا وتدعى مملكة إسرائيل. بدأ العهد الأول بهذه الواقعة عام ٧٢١، ثم اكتمل ابتداءً من عام ٥٩٧ ق.م، ووصل ذروته عام ٥٨٧ ق.م. أي أن عملية التدمير التي استهلها الآشوريون بدأت مرحلتها الثانية بعد ١٢٤ عام. وفي هذه المرحلة هاجم نبوخذنصر ملك بابل المملكة الثانية وكانت تسمى يهوذا أو اليهودية، وعاصمتها اورشليم.

وساق عددا كبيرا من اليهود أسرى على بابل، وكان من بينهم سيدنا حزقيال النبي. ونعلم من كتاب حزقيال في أسفار العهد القديم.. أن العقاب الذي نزل باليهود كان بحسب القول الإلهي الوارد بالكتاب في مثل المدينتين اللتين كانت كعاهرتين تاجرًا بجسديهما وتجاوزتا كل الحدود بلا حياء، ولم تتورعا عن عمل علاقات مع الأعراب، ففقطعتا علاقتهما بالله. هكذا يصورهم المثل في أشع صورة، ويقول بأن العقاب المقدر لفعالهما هذا هو أن قطع الله صلته بهما، وقال: أيتها المرأتان العاهرتان.. أنتما لمن تبيعان جسديكما لهم. وبالفعل أقصى الله هؤلاء العاهرات من الأرض كلها، ونقض كل حجر في معبد سليمان.

وفي عام ٥٥١ أو ٥٥٣ ق.م، وبجهود النبي حزقيال، بدأت عملية اتصاهم مع أهل فارس. ويشير القرآن الكريم إلى هذه الفترة ومحاولة حزقيال الاستعانة بهم فيما ورد بسورة البقرة عن هاروت وماروت. ومع أن الثورة وقعت فيما بعد إلا أنها بدأت في زمن سيدنا حزقيال. وبعد ٤٨ عام من الهجوم الذي دمر فيه نبوخذنصر اورشليم وفلسطين تماما.. تغلب اليهود على الأرض المقدسة مرة ثانية بمساعدة من شعب فارس عام ٥٣٩ ق.م، حيث عادوا بمعونة من الملك "قورش" الذي أخذهم ليستقروا مرة ثانية في اورشليم، وتمكنوا من العيش فيها قرونا طويلة.

الدمار الثاني

كما وردت نبوءات في كتب أخرى أن هاتين المدينتين ستكونان كعاهرتين، وتصيران شريرتين مرة أخرى، وتعاقبان على شرورهما مرة ثانية كذلك. فالصورة التي رسمها القرآن الكريم من أنكم ستفعلون الشرور في فلسطين مرتين، وترتكبون التمرد والعصيان مرتين.. كل ذلك تحقق تماما. فهم أولا ارتكبوا الشرور، ثم جاءت الأمم لعقابهم، ثم ثاروا، ثم تم سحقهم.

في المرة الثانية بدأ العقاب عندما احتل الإمبراطور "بومبي" (Pompey) مملكة يهوذا عام ٦٣ ق.م، ومن وقتها بدأ دمارهم الثاني الذي اكتمل عام ١٣٢م. وذلك في زمن الإمبراطور "هادريان" (Hadrian) العظيم ذو المكانة الكبرى بين الأباطرة الرومان، والذي امتد ملكه من بريطانيا شمالا إلى أفريقيا جنوبا ونهر الفرات شرقا، وجاء إلى بريطانيا حيث بنى في شمالها سورا مثل سور الصين، قيل إن طوله يبلغ ٧٠ أو ٨٠ ميلا، ولا يزال موجودا حتى اليوم. لما بلغه تمرد اليهود استدعى قائده الذي كان حاكما على بريطانيا وقتئذ، وكان معروفا بكفاءته، وكلفه بسحق الثورة اليهودية. كان ذلك عام ١٣٢ أو ١٣٤م على خلاف بين المؤرخين. فلقتهم القائد درسا رهيبا. ويقول المؤرخون أنه قتل نصف مليون من اليهود. كنت أحسب هذا الرقم مبالغا فيه أو خطأ، ولكن بعد

قراءة الوعد القرآني بزيادة عددهم وأولادهم تأكدت عندي السجلات التاريخية عن قتل نصف مليون يهودي وهدم المسجد مرة أخرى. هكذا بُنيَ معبد سليمان مرتين وهدم مرتين.

وعد آخر

بعد تحقق كل ذلك يقول الله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم. وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾. لقد تحققت النبوءتان السابقتان في موعدهما المعين، ولكن متى يتحقق قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾؟ وكيف سيتحقق؟ ففي هذا الصدد جاءت في أواخر السورة نفسها آية تشير إلى زمن سيدنا محمد المصطفى ﷺ، وتشكل جزءا من هذا الموضوع عينه.. مما يعني أن وعد الرحمة هذه سوف يتحقق في الأيام الأخيرة، في زمن أمة سيدنا محمد المصطفى ﷺ. يقول الله تعالى: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض. فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيها﴾ (الآية: ١٠٥).. أي عندما يأتي العهد الأخير نجتمعكم من كل أجزاء الأرض ونأتي بكم إلى هنا. فقدر الله تعالى أن تجتمعوا كلكم سويا. وقد حدث ذلك اليوم الأول مرة. لقد عاش اليهود بأرض فلسطين مرة بعد مرة.. ولكن لم يحدث قط، ولا مرة واحدة، أنهم اجتمعوا وتجمعوا سويا من الشتات (Diaspora).. أي من جميع البقاع التي تشتتوا فيها. هذه هي الواقعة الأولى في تاريخ العالم. وهكذا ترون.. أن النبوءات القرآنية تحققت تحقفاً مذهشا مجيدا في الماضي، وسوف تتحقق في المستقبل أيضا.

لذلك أود أن أخبر اليهود في ضوء النبوءة السماوية في قول الله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أنه بعد ما نزل بكم من فضائع لا مثيل لها على يد النازي في ألمانيا، لقد قدر الله بأنكم قد عانيتم كثيرا، ولعلكم تعلمتم درساً، لذلك صفح عنكم وأعاد لكم الفوز مرة أخرى.. ولن يكون لدى الدول الإسلامية طاقة على كسر حكمكم. لأننا نعلم من أقوال رسول الإسلام ﷺ أن مؤامرة شريفة سوف تطل برأسها من هذا السبيل.. في هذا البحر الصغير الواقع بين سوريا والعراق.. وهو في إسرائيل، وسوف تستهلك كل ماء البحر. أما البحر الصغير الذي ورد في الحديث النبوي الشريف فهو بحيرة طبرية التي يمر منها نهر الأردن. قال النبي ﷺ إن جيشا كبيرا سوف يحتشد هناك، ثم يرتحل، ويقول بهجوم مفاجئ.

فإذا كانت إسرائيل لم تتعلم درسا من الدمارين التاريخيين الماضيين، ولم تتعلم من تجاربها المريرة.. فسوف تنشأ فتنة من إسرائيل تعكر صفو السلام العالمي. وهذا قضاء الله لا تستطيع قوة في الأرض تبديله. يقول الله تعالى أنه سوف يدمر تلك الفتنة.. ويقوم بكسرها وتحطيمها مع كل القوى التي معها وتساندها، وسيجعلها عبرة لمن يعتبر.

تنبؤات عن الفتنة الإسرائيلية و"الإيدز"

والرسالة النهائية في حديث الرسول ﷺ.. أن الله تعالى سوف يصيب رقابهم بالأورام التي تقضي عليهم بمئة مريضة وعلى نطاق واسع. إنه مرض الإيدز الذي سبق أن ذكرته. وفهمي هذا مبني على قول النبي الكريم ﷺ: عن النواس بن سمعان، رضي الله عنه، قال: "ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحفض فيه ورفع.. أي تحدث عنه بتفصيل كثير، والحديث طويل جاء فيه: "إنه خارج خلة (أي منطقة) بين الشام والعراق. فعاث يمينا وعاث شمالا (أي نشر الخراب والفتك حيثما اتجه) قلنا: يا رسول الله ما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح (أي دفعته، كما تسير الطائرة النفاثة اليوم). فبينما هو كذلك.. إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أني قد أخرجت عبادا لا يدان لأحد بقتالهم (أي لا يقدر أحد قتلهم) ويعت الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون (أي يأتون مسرعين من كل مرتفع من الأرض). فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذا مرة ماء. (يعني أين ذهب الماء؟ وفي مثل هذا الموقف الرهيب) فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى (أي يتهلون إليه بالدعاء). فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم.. فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. (والنغف دود يكون في أنوف الإبل والغنم، وفرسى يعني قتلى. أي أن الله يخلق في رقاب يأجوج ومأجوج الجراثيم التي تقضي على أكثرهم في سرعة كبيرة). (صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، وأبو داود، والترمذي وأحمد والحاكم وابن ماجه)

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ: "لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا." (سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات)

إي إذا أصيبت أمة بعدم الاحتشام الجنسي، وجهروا به علنا.. فسوف ينتشر فيهم نوع من الطاعون لم يظهر فيمن قبلهم من الناس.

ويشير هذا الحديث بوضوح إلى مرض الإيدز، وهو يوصف بكونه نوعا من الطاعون، ويقولون إنه لم ينتشر من قبل في العالم.

ومما هو جدير بالذكر أن الله تعالى أخبر سيدنا المهدي والمسيح الموعود عليه السلام مرزا غلام أحمد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، عن نوع جديد من الطاعون سوف ينتشر في أوروبا وغيرها من بلاد النصرى. (مجموعة إلهامات المهدي والمسيح، التذكرة ص ٧٠٥). فهذا نوع من الدمار المقدر.. إن لم يكن اليوم فغدا. وإذا لم تصلح هذه الأمم من نفسها، فلسوف يكون لأفعالها الشريرة عواقب وخيمة.

الوعيد مشروط دائما

وهنا ينبغي تفسير النبوءات الإنذارية أو الوعيد بلغة القرآن المجيد. إنها نبوءات شرطية دائما، سواء أفصحت عن الشروط أم لا. والمثال الواضح لذلك نجده في واقعة سيدنا يونس التي نُسخت فيها نبوءة قاطعة بعقاب قومه.. ذلك بسبب بكائهم وتوبتهم. وهكذا.. ومع أن قرار استمرار إسرائيل أو هلاكها يتقرر في السماء.. ولكن لو استطاعت العناصر الطيبة والمحبة للسلام منهم أن تتغلب على الصهاينة، فقلّموا برائن شهوتهم إلى الانتقام الوحشي

الذي حُفِر في طبيعتهم، وقام اليهود كأمة بهذا العزم الثوري على معاملة المسلمين والنصارى وسائر الأمم معاملة عطوفة.. فإني أؤكد لهم، وفقاً لوعدهم القرآن، أن الله جل وعلا سوف يعاملهم بالحسن؛ وأن المسلمين بدورهم يعاملونهم بالعدل والعطف. وعليهم ألا ينسوا بأن طبيعة المالكي والشيوخ المتعصبين ليست هي طبيعة الإسلام السمحة، بل إن الطبيعة التي أضفاها القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ على المسلم لي بها مشاعر الانتقام؛ وإنما تتسم وتتميز بالعفو والصفح والرحمة.

نصيحة للغرب

وأود أن أوضح للأمم الغربية النصرانية، بمشاعر مخلصة، أننا نجد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ نبوءات بشأنكم.. تشير إلى عقوبات رادعة. ويجب عليكم ألا تنظروا إليها بعين الكراهية أو السخرية. إن كتابات السماء لا يمكن أن تُلغى بالمكر الدنيوي؛ ولكن إذا أمكن وقفها فذلك بالتوبة وطلب المغفرة والصفح من الله تعالى والتوجه إلى الصلاح والتقوى. إذا فعلتم ذلك.. فعفو الله تعالى، الذي يسع غضبه، له القدرة على أن يلغي كل عقاب قد قدر.

لذلك ينبغي عليكم أن تحدثوا تغييراً أساسياً في طريقة تفكيركم السياسي والاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي. وفي كل مجال بلا استثناء.. يجب أن تسود متطلبات العدل على متطلبات المصالح القومية والعنصرية. يجب أن تعاملوا الدول الضعيفة والفقيرة بالعطف. إذا لم تستطيعوا قبول الإسلام.. فعودوا على الأقل إلى التعاليم الصالحة في التوراة والإنجيل، وطهروا مجتمعكم بصفة خاصة من عدم الحياء الذي يتزايد باستمرار. لو فعلتم ذلك فسوف يتبدل قدركم السيئ إلى خير. وبتعاونكم مع أهل الإسلام وسائر البشر تتمكنون من بناء نظام عالمي جديد، ويتحول السلام العالمي من فراغ الأحلام إلى حيز الحقائق الواقعة.

وإن لم تفعلوا ذلك، فسوف ينهدم النظام القديم ويتحطم على أي حال.. ولكن في نفس الوقت سوف تتحطم عظمة كثير من الأمم، ويزول شرفها ومجدها للأبد. ولكن رغبتى ودعائى أن يشيد النظام العالمي الجديد.. ليس على أنقاض الأمم التي عانت من الدمار، وإنما بمادة الأمم التي تبدلت وتحسنت.

بالدعاء.. لا بالسلاح

وفيما يتعلق بنا.. فقد أخبرنا ربنا من قبل أننا ضعفاء. لقد وعظنا سيدنا ونبينا محمد ﷺ منذ ١٤ قرناً بأن الله تعالى سوف يرفع في المستقبل أمماً عظيمة قوية، لا قبل لأحد بقتالهم، فينبغي ألا يدور بخلدكم قتالهم بأسلحة الدنيا. ذلك مسطور في كتب الحديث. ارجعوا إلى أحاديث المصطفى ﷺ في صحيح مسلم كتاب الفتن، وبوسع كل إنسان أن يطلع عليها. لقد أخبرنا النبي ﷺ أن كل ما نتوصل إليه سيكون من خلال الدعاء. إن قدر الله تعالى هو الذي سوف يدمر القوى العظمى إذا ما عزمت على فعل الشر في العالم. أما وقد جعل الله سائر العالم بلا سلاح ولا حيلة من ناحية، وأعطى القوى العظمى فرصة لعمل الشر من ناحية أخرى، فإن مسؤولية حماية الضعفاء تكون في يد الله يقينا.

هناك إذن وسيلة وحيدة للحصول على التأييد السماوي.. ذلك أن تقيموا علاقات مع الله تعالى، ويصلح المرء نفسه بقدر ما بوسعه. يجب أن لا ترتكبوا أي شر باسم الإسلام. يجب أن تمحوا فكرة الإرهاب من قاموس المسلمين. إن فعل الفوضى والشر وتخزين المشاكل لإيذاء الآخرين هي أفعال الحمقى.. ولا علاقة لها بالإسلام بتاتا. ينبغي عليكم أن تدخلوا في السلم وتصلحوا أعمالكم ومعاملاتكم فيما بينكم وعلاقاتكم مع الأمم الأخرى، وتنتظروا بصبر.. وسترون كيف يتغلب قدر الله تعالى على خداع الماكرين الأشرار.

٨ مارس ١٩٩١